-١٠٦٠٣-

ذكر وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ين أيوب

كانت وفاتُه رحمه الله تعالى بَعد صلاة الصُّبح يومَ الأربعاء لثلاثٍ بقِين من صَفَر سنة تسعٍ وثمانين وخمسمائة.

وكان مولدُه بقلعة تكريت في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة؛ فكان عمرُه سبعاً وخمسين سنة تقريبا ومدة ملكه منذ ولي وزارة العاضد لِدين الله ولُقّب بالملك النّاصر لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة سنة أربعٍ وستين وخمسمائة وإلى هذا التاريخ أربعاً وعشرين سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام؛ ومنذُ خُلع العاضِدُ في سابع المحرّم سنة سبعٍ وستين وخمسمائة اثنتين وعشرين سنةً وشهراً واحداً وعشرين يوماً.

وكان ابتداء مرضه يوم السبت سادس صفر ؛ ونال المسلمون لوفاته من الألم مالا يُعبر عنه، ولما مات دُفن بقلعة دمشق في منزله؛ وما زال ابنه الأفضل يتروى في موضع ينقله إليه، فشرع في بناء تربته عند مسجد القدم وبنى عندها مدرسة للشافعية، وأمر ببناء التربة في سنة تسعين وخمسمائة؛ فاتفق وصول ابنه العزيز تلك السنة من الديار المصريّة للحصار، فخرب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم أمر بعمارة القبة في حد جامع دمشق. فعمرت ونقل إليها يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة؛ ومشى الأفضل أمام تابوته، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد، وأدخل منه إلى الجامع ، وصلى عليه قدام باب النسر صلى عليه القاضي محيي الدين محمد بن علي بإذن الأفضل، ثم حمل إلى لحده، وألحده الأفضل وجلس في الجامع ثلاثة أيام.

وكان الملك الناصر رحمه الله كريماً جواداً شجاعاً، حسن الأخلاق، مضت أكثر أيامه في الجهاد في سبيل الله تعالى.

قال ابن شداد: لما مات السلطان لم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصرية وجرما واحداً ذهباً صورياً ، ولم يخلف ملكاً في سائر أنواع الأملاك ، وحسب ما وهبه من الخيل في مدة مقامه على عكا فكان تقديره اثني عشر ألف رأس: ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه يلازمه في طلبه: وما حضر اللقاء إلا استعار فرسا فركبه، وكان لا يلبس إلا ما يحل كالكتان والقطن والصوف، وكان له ركعات يصليها من الليل .

وخلف رحمه الله من الأولاد، على ما نقله العماد الأصفهاني وغيره سبعة عشر ولدا: الملك الأفضل نورُ الدّين أبوالحسن علي، وهو أكبرهم؛ والملك العزيز عمادُ الدّين أبو الفتح عثمان؛ والملك الظاهر غياث الدّين، وقيل شهاب الدّين، أبو منصور غازي؛ والملك الظافر مظفّر الدّين أبو العباس خضر؛ والملك المعز فتح الدّين أبو يعقوب يوسف؛ و الملك الأغر شرف الدّين أبو يوسف يعقوب والملك المؤيّد نجم الدّين أبو الفتح مسعُود؛ والملك الزّاهر مجير الدين أبو سليمان داود؛ والملك المفضل قطب الدّين أبو محمد موسى؛ والملك الأشرف عزّ الدّين محمد؛ والملك المحسن شهاب الدّين أبو العباس أحمد؛ والملك الجواد ركن الدّين أبو سعيد أيوب؛ والملك المظفّر فخر الدّين أبو منصور تُورَانشاه؛ والملك العادل نور الدّين أبوالمظفّر ملكشاه؛ والملك المنصُور نُصرة الدّين ميرمران؛ والملك الصالح معين الدين إسماعيل ؛ وعماد الدين شادي، ويسمى عمر؛ وابنة صغيرة.

ذكر من ملك الممالك التي كانت جارية في ملك السلطان

الملك الناصر صلاح الدين يوسف رحمه الله تعالى

من أولاده وإخوته وأقاربه وألزامه بعد وفاته

استقَرّ ملـكُ دمشق وما معَها للملـك الأفضل نور الدّيـن أبي الحسن علي، وهو أكبر أولاده، ووليّ عهـده، وعنده أخواه شقيقـاه، الملك الظّـافر خضر، والملكُ المفضّل مُوسى.

واستقرّ ملـكُ الدّيـار المصريّة للملـك العزيـز عماد الدّيـن أبي الفتح عثمان.

واستقرّ ملـكُ حلب ومـا يَليها للملـك الظّاهـر غياث الـدّين غـازي، وعنده أخوه: الملك الزاهر داوود، فجعله من قِبَله على البيرة.

واستقرّ ملـك حمص والرّحبـة[وتدمـر] للملك المجـاهد أسَـد الدّيـن شيركُوه بن محمّد بن شيركوه، وهو ولد ابن عمّ السّلطان الملك النّاصر.

واستقر ملك حماة وسَلَمْية والمعرّة ومَنْبج للملـك المنْصُور ناصر الدّين محمّد بن تقي الدين عُمر بن شاهنشاه بن أيوب.

واستقرّ ملك حـرَّان، والرّها، ومَيَّافَارقين، والرّقـة، وقلعة جعبر، والكرك والشّوبـك للملك العـادل سيف الـدّين أبي بكـر بن أيـوب، وهو أخـو السّلطان.

واستقـرّ ملـك بعلبـك للملـكْ الأمجد[بَهْرَامشـاه] بـن فَـرُّخْشـاه بـن شاهنشاه بن أيوب.

واستقر ببعْـرين وأفـامية وكَفَـرْ طاب عز الـدّين[إبـراهيم] بـن شمس الدّين بن المقدّم.

واستقرّ بصهْيَوْن ناصر الدّين[منكورس بن خمارتكين].

[واستقر] بشيزر وأبي قبيس[سابق الدين عثمان بن الداية].

واستقرّ بتلّ باشر بدر الدّين دُلْدُرم بن ياروق.

واستقرّ بَعَينْتاب ناصر الدّين شحنة حلب.

هذه الممالك التـي كانت جارية في ملك السّلطـان الملك النّاصر رحمه الله.

فلنـذكر الآن أخبـار الدّيـار المصريّة ومَـنْ ملكها بعْـدَ وَفاة السّلطـان الملك النّاصر، ونجعـل مايقع لهؤلاء الملوك، أو في ممـالكهم، من الحوادث في ضِمنْ أخبار ملُوك الدّيار المصرية؛ وننبّـه عليها بالتراجم، على مانقفُ عليه إن شاء الله تعالى.

ذكر أخبار الملك العزيز عماد الدّين أبي الفتح عثمان ابن الملك النّاصر صلاح الدّين يوسُف بن أيوب

وهو الثاني من ملوك الدّولة الأيوبية بالدّيار المصرية ملك الدِّيار المصريّة عندما وصل إليه الخبرُ بوَفاة والده السّلطان الملك النّاصر، رحمه الله تعالى، وذلك في شهر ربيع الأول سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

ولما ملك أحْسَن السيرة وأطلق جميع ماكان يُؤْخذ من التُّجار وغيرهم من المكوس على اسْم الزّكاة، وجّهز إلى البيت المقدّس عشرة آلاف دينار لتُصْرف في مَصَالحه؛ وأكرمَ أصحَاب أبيه وعامَلَهم الأفضل أخوه صاحبُ دمشق بخلاف ذلك، فمالت القُلوب إلى الملك العزيز ونَفَرت عن الملك الأفضل، فاستَشْعَر الأفضَلُ من أمرائه، وعَزَم على القَبْض عليهم؛ فبلَغهُم الخبرُ ففارقُوه، واتّصلُوا بخدمة أخيه الملك العزيز بالدّيَار المصريّة في بقيّة السّنة فأكرمهم وقرَّبهم وكان منه مانذكُرهُ إن شاءَ الله تعالى.

ذكر استيلاء الفرنج على جبيل

كان استيلاؤهم على حصن جُبَيل في مستَهلّ صَفَر سنةَ تَسْعين وخمسمائة بمُواطَأة ممَّنَ كان فيه، وذلك أنّ الحصن كان عدَّةُ من فيه خمسَة عشَر رجلاً، فندب متولّى البلد منهُم عشرةً لجباية الجِزْيَة، وخرج متولّي الحصن إلى الحمام، فاستصحب أحد الخمْسَة الذَين تأخّروا بالحصْن معه، وبقي به أربعةٌ من الأكراد، فأغلقُوا بابَ الحصْن، وتوجّه أحدُهم إلى الفرنج الذين بالتّيرون فأخبرهم بخلُو الحِصْن، وكان به حدَّادٌ نصراني، فصعد هو والثلاثة إلى أعلى الحصن، فلمّا عادَ الوالي منعُوه من الدّخول ورَمَوْه بالحجارة، فكسَروا يده، وقالُوا هذه القلعة قد صارت للقَوْمَص، وجاء أهل التيرون بالليل فطرَدُوا من كان بالباشُورة من المسلمين.

ووصل ابن ريمون أخو صاحب جُبيل وتحدَّثُوا مع الأكراد، فنزل أحدهم إليهم وقرّر معهم أن يُعطوا نَصفَ ما بالحصن من سائر الحَواصل وغيرها، وأن تكون لهم ثلاثة ضياع من عَمَل طرابلس؛ واستحلفهم على ذلك. وتسلّموا الحصْنَ، فرَتّب الفرنج فيه من الجَرْخِيّة ألفاً وخمسين جرخيا.

فلما اتّصل الخبرُ بالسّلطان الملك العزيز عظُم عليه، وأخرَجَ خيامه في يوم الأحد العشرين من شهر ربيع الأول، وأمر بالاستعداد للخروج إلى الشام لاستنقاذ جُبيَل من الفرنج، وأرسل شمس الخلافة رسولا إلى الفرنج بسبب إعادة جبيل، فتوجّه في سادس عشر شهر ربيع الآخر.

وفي سنة تسعين وخمسمائة، لسبع بقين من شهر ربيع الأول، عُزل القاضي صدر الدّين بن دِرْبَاس وفُوّض القَضاء بالدِّيار المصرية للقاضي زين الدّين أبي الحسن على بن يُوسف بن عبد الله بن رمضان الدّمشقي؛ فوَلِيَ وعُزل في سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي صدر الدّين، وقيل بل وَلى القاضي محيي الدّين محمّد بن عبد الله بن أبي عصرون، وعُزل في يوم الأحد سادس عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وأعيد القاضي زين الدّين الدّمشقي فولي سنَةً، ثم عزل، وأعيد القاضي صدر الدّين إلى أن توفي سنة خمس وستمائة والله أعلم.

ذكر مسير الملك العزيز إلى الشام والصّلح بينه وبين أخيه الملك الأفضل وعوده إلى القاهرة

قال: وفي تاسع عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسعين وخمسمائة توجَّه الملكُ العزيز إلى الشام، وترك بالقاهرة من الأمراء بَهاء الدّين قراقوش

وصيرم، وجَهّز ثلاثة عشر لواءً إلى ثغرَيْ الإسكندرّية ودمياط ومعهُم سبعمائة فارس، واستصْحَب معه من الأمراء سبعةً وعشرين أميرا عدتهم تقدير ألفي فارس، ومن الحَلْقة ألف فارس. فلمّا اتصل بالأفضل خروجهُ استَعدّ وأنفق النّفقات الوافرة، وخرج إلى رأس الماء في سبعمائة فارس، ولمّا وصَل الملك العزيز إلى الغَوْر احْتاط على الخَاصِّ الأفضلي به، وشَرَع في إقْطاع أعمال الشام، وجهّز من أمرائه: قايْمَاز، وعشرين أميراً، منهم، جهَارَكس،وميمون القَصْري، وسُنْقُر الكبير، والشجاع الخادم، والجناح، وجُرْدَيك، فتقدّموا ووقعُوا على أطراف العسْكر الشّامي، فرجع الأفضل إلى دِمشْق وغُلّقت أبوابُ البلد لمّا قرَب العسكر المصريّ منها.

وتقدّم العزيز وترك ثِقَله بمسجد القصب بظاهر دمشق، ونزل هو بالكُسْوة؛ فاستَنْجد الأفضل بعمه الملك العادل فحضر إلى دِمَشق، وحضَر الظّاهر من حَلب، وناصرُ الدّين صاحبُ حماة، وأسد الدّين صاحب حمص، وعسكرُ الموصل وغيره. فلّما رأى العزيز اجتماعهم علم أنْ لاقُدْرَة له بهذا الجمع، وكَتب إلى عمه العادل يقول: أنا ماخرَجْتُ من الدّيار المصريّة إلا لِاسْتنقاذ جُبيل من الفرنج، فبلغني أنّ الملك الأفضل حالف الفرنج عليَّ، واستنْصر بهم، ووَعدَهم أن يُعيد البلاد إليهم، فاقْتضى ذلك سَوْقَنَا إليه، وبَلَغنا أنك تدخل بيْننا وبيْنه، وحُوشِيت من ذلك، وأنا خيرٌ لكَ منْ غيري، وإنْ أرَدْت أنْ تكُونَ السّلطان ورئيسَ الجماعة فأنَا راضٍ بذلك.

وكتب لأخيه الملك الظّاهر وغيره من أصحاب الممالك وتردّدت الرّسائل بَيْنهم.

وتقرَّرت الحال على أن يكُون للملك العزيز البيْتُ المقدّس وماجاوَرَه من أعمال فلسطين؛ وأن تكون دمشق وطبريّة وأعمال الغور للملك الأفضل؛ وأن يُعْطِي الأفضل لأخيه الملك الظّاهر جَبَلة واللاذقيّة؛ وأن

يكون للملك العـادل بالدِّيار المصريّة إقطاعـه الأوّل، وأنْ يُخْطَب للملك العزيز ببلاده، وتُنْقَش السِّكَّة باسمه؛ وأنّ الملك العزيز يُمدُّه بألف فارسٍ إعانةً له على فتح خلاط.

واجتمع الملكُ العادلُ بالملك العزيـز، وتزوَّج العزيزُ ابنْتهُ، وجاء الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب إلى أخيه الملك العزيز. وتقرَّرت قواعد الصلح.

وتأخّـر الملكُ العـزيز إلى الكُسْوة ثـم إلى مَرْج الصُفَّـر، ومرض بـه ثمّ أفاق.

ولمَّا عزم على العَوْد إلى الدّيَار المصريّة خرج لـوَدَاعه سائرُ الملوك الذين حضَروا لنصرة الأفضل، ثـم خرج إليـه الأفضل في سـابع شعبـان وأدركه بفيق، وهـي أعلى الغور، فأكـرمه الملك العـزيز، وبـالغ في احْترامه وسـاله الأفضل أنْ يـرجع إلى دمشق ليزُورَ قبر أبيـه، فأجاب إلى ذلك؛ ثـم أشارَ عليه أصحابُـه ألاّ يفعل، فامتنع، وعـاد الأفضل، وسار العَزيـزُ إلى الدّيار المصريّة فدخلها في أواخر شعبان.

وفي مستهل جمادى سنة سبعين وخمسمائة هبَّت رياحٌ عـاصفةٌ بالقـاهرة مِـن وَقْت العَصْر، وسقَـطَ في ثـالث الشهـر بَـرَدٌ كثير أكْبَرُه قدر البيـض وأصغَـرُه قـدر النّبـق، وصـار على جبل المقطـم منـه شيء كثير كـالجبـل الثّاني؛ونقل النّاس منه مدّة أربعة أيام؛ ثم سَالَ حتى ملأ الخندق، ودخل الماءُ من المَرامي الّتي في السّور إلى القاهرة، وعَلاَ، حتى خِيف على البلد.

ذكر خروج الملك العزيز لقَصْد الشّام ثانيا ورجوعه وقصْد العادل والأفضل الدّيار المصريّة وماتقرر من القواعد

كان سبب ذلك أن الملك الأفضل قَلّد وزارة دمشق لِضياء الدّين ابن الأثير الجزَري وحكّمه في البلاد، فقَصَد الأمراء بالأذى والإطّراح، وتشَاغَل الأفضل عنهم، ففارق خدمة الأفضل ميمون القصري وسنقر الكبير، وعز الدّين سامة، وغيرهم، وحضر بعضُ هؤلاء إلى الدّيار المصْريّة، وانضموا إلى الملك العزيز، وقالوا له: إنّ الأفضل مسلُوب الاختيار؛ وحَرَّضُوه على قَصْد دمشق؛ فخرَج إليها في سنَة إحْدَى وتسْعين وخمسمائة.

فلمّا اتّصل خبرُ خُروجِه بالأفضل ركبَ من دمَشق في رابع جُمادى الأولى وتوجّه إلى عمّه الملك العادل، وهو بقلعة جَعْبَر، واستنجد به، وسار إلى أخيه الملك الظّاهر بحلب واستنجد به أيضاً، فركبَ الملكُ العادلُ وجَدّ في السّير إلى دمشق خوْفا أنْ يسبقَه العزيز إليها، وكاتَب الملكُ العادل الأمراءَ الذين صُحْبة العزيز، وكان العزيز قد نَزَل بمنزلة الفَوّار على مرحلتين من دِمَشق، واستمالَهُم وحذّرَهم من العزيز، فمالُوا إليه، واستمالوا أبا الهيجاء السّمين، وفارقوا العزيز وقَصَدُوا دمشق؛ وذلك في يوم الاثنين رابعِ شوال من السّنة.

فلمّا وصَلوا إلى دمَشق أتّفق العادلُ والأفضل، وتحالَفَا على قَصْد العزيز وانْتزاع الدّيار المصريّة منه، على أن يكون ثُلُثُ الدّيار المصرية لِلْمَلِك العادل إقطاعاً، والثُّلثان للملك الأفضل. وسارُوا في طلب العْزيز، فَرجع إلى الدّيار المصريّة وجَدّ في السّيْر ودخلَ القاهرة.

قال: ولمّا وصل العَادلُ والأفضل إلى القُدس سلَّماه وأعمالَه ومايجاورُه من أعْمَال السّاحل لأبي الهيجاء السّمين، فرتَّب فيه نُوّابه، وسار معهُما إلى الدّيَار المصريّة، فنَزَل الملِك العادل على بلبيس، وكان السعر ماشيا فاستظهر العزيز عليهم.

قال: ولم يكن غرضُ العادل قَصْدَ مِصْر، وإنما خَشِي على الملك العزيز من الأمرَاء أنْ يقتُلوه ويستَوْلُوا على الدّيار المصريّة، فقصدها لهذا السبب.

ولمّا ضاقت الميرَةُ على العسكر الشّامي، وقلت أزوادُهم ندِموا على وصُولهم إلى الدّيار المصريّة؛ فأرْسَل الملك العادل إلى القاضي الفاضل عبْد الرّحيم في الاجتماع به، فأذنَ له العزيزُ في ذلك؛ فخرج إليه، فاستَبْشَر النّاس بخرُوجه رَجَاء وقُوع الصّلح، وركب العادلُ وتلقّاه على فَرَاسِخ، فاجتمعا، واستقرّت القواعد على أن يكون إقطاع العادل بمصر على عَادَتِه، وأن تكون إقامتهُ عِنْد الملك العزيز بالقاهرة، وأن يعفو[العزيز] عن الأسَديّة والأكراد.

واجتَمعَ العادلُ بالأفضل وأمرهُ بالرُّجوع إلى دمشق، ثمّ اجتمع الأفضل بالعزيز، واستقرّ الصلح بينهما، وأهدى العزيز إليه هدايا جليلة المقدار، ورَجع الأفضل إلى دمشق ومعه أبو الهيجاء السّمين، فدَخَلها في المحرّم سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة.

ولم تَطُل المدّة إلى أن بلغ الملك العادل عن الأفضل مااستوغَرَ خاطَره، فعند ذلك قرّر، مع الملك العزيز، أن يُجّهز العساكر لتمهد قواعد الملك بالشّام وسائر البلاد، واتّفقا على أن يكون العزيزُ بدمشق والعادل ينوب عنهُ بالدّيار المصريّة.

ذكر ملك العزيز دمشق وخروج الأفضل إلى صرخد

قال: ولمّا اتفق الملك العادلُ والملك العزيز على ماقرّراه تجّهز [الملك العادل] للمسير إلى دمشق وبرز بخيامه من القاهرة في يوم السّبت مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة في ثلاثة آلاف فارس. ثمّ برز الملك العزيز في يوم الثلاثاء، رابع الشهر، وظاهرُ خروجهِ وداعُه لعمّه الملك العادل، وحث العساكر المجرَّدة على الخروج، وأقام ببركة الجُبّ.

فلمّا كان في العشرين من الشهر اتصل بالملك العادل عن الملك الأفضل أنّه كاتب الأسَدِيّة، وأنّه قبض على أموال كانت للعادل بدمشق، وأطلق رهائن كانت عند نُوّابه، وأنّه وافق الظاهر صاحب حلب؛ فقرّر مع الملك العزيز أنْ يتوجّها جميعا ويأخذا دمَشْق من الأفضل وحَلَب من الظّاهر، فاتّفقا على ذلك وعقدا بينهما يميناً.

وشرع الملك العزيز في تجهيز رجال الحلقة والأعيان، ورَحَل هو وعمّه الملك العادل من البركة في يوم الثّلاثاء ثامن جُمادى الأولى، فحَصَل لِلْعَادل ضعفٌ في هذا النهار منعَهُ عن الحركة، وكان وصُولهما إلى بلبيس في سابع عشر الشهر، وكمُلَت صحّة العَادل في العشرين من الشهر، وسَارَ إلى الشام على مهل ورفق.

فلمّا تحقّق الملك الأفضل قَصْدَهما لبلاده اسْتَشار شيوخ دولته. فأشاروا عليه أنْ يستقبل أخاه وعمه ويسلّم لهُما الأمر؛ وأشار وزيرهُ ضياءُ الدّين ابن الأثير الجزري بالتصميم والمخالفة، فرَجع إلى رأيه، وحصَّنَ البلد، وفرّق الأمراء على الأسوار، فلمّا رأى شيوخ الدولة وأكابرها أنّه لم يرجع إليهم واعتمد على رأي وزيره راسلوا الملك العزيز والملك العادل في انتهاز الفُرصة؛ فركبا بعساكرهما وتأهّبَا في يوم الأربعاء

السادِس والعشرين من شهر رجب، وخَرَج أهلُ دمشق لِقتالهم؛ والْتَقَوْا في السّابع والعشرين من الشّهر، فلم يكُن بأسْرع من انهزام العَسْكر الشّامي. وتبعَهُم العزيز والعادل حتى ألْجأوهم إلى سُور البلد، ودخلوا دمشق، وتبعهم العسكر، فملكت البلد.

فعندها ركب الملكُ الأفضل إلى خيمة أخيه الملك العزيز، واجتمع به بظاهر دمشق.

قال: ودخل الملك العادل ومَنْ معه باب تُوما والباب الشّرقي، ونَزَل الدّار الأسدية، ودَخَل الملك العزيز من باب الفرج وبات في دار عمّته الحساميّة، ومَلَك العزيز دمشق وأقيمت لهُ الخُطْبة في يوم الجمعة الثّامن والعشرين من الشهر.

قال: ولمّا ملك الملكُ العزيز دِمَشق ندم على ماكان قرر من إقامته بالشام وتَمْكين عمه الملك العادل من الدّيار المصريّة، واعْتَذر إلى أخيه الملك الأفضل في السّر، فأظْهَر الأفضل سِرَّهُ لمن معه فظنوا أن هذه خديعة، فأرسل إلى العَادل وأعْلمه بمُراسلة العزيز، فعتَبَه العادل، فأنكر الحال، وخَرَج الأفضل إلى صَرْخد، وقُرِّر لَهُ في كل سنة مائتي ألف درهم من صرخد وغيرها، وهو كارهٌ لذلك، وسألَ أن يكون بمكّة؛ وينقطع إلى الله تعالى، وينزل عن المُلك، فلم يُجِبْه العزيز.

وكان خروج الأفضل من دمشق إلى صَرْخد يوم الاثنين،ثاني شعبان سنة اثنتين وتسعين، فكانت مدّة ملكه لدمشق، منْذُ وفاة والده إلى أن ملكها العزيز، ثلاث سنين وخمسة أشهر.

ودَخَل الملكُ العزيز قلعَة دمشق واستقرّ بها في يوم الأربعاء رابع شَعْبان من السّنة المذكورة، وجَلَس يوم الجمعة بدَارِ العدل واسقط

المكُوس بدمشق ماهو مقرّر على سُوق الرقيق، وسُوق الدوّاب، ودار البطّيخ، والملاهي، والعصير، والفَحْم، والحديد، وسَبْكَي الفولاذ والزّجاج.

قال:وهرب ضياءُ الدّين ابن الأثير ونُهبت داره.

ونُودي في دمشق أن يلْبَس أهل الذّمَّة العمائم الغيار ليُعرفوا من المسلمين، وكان سببُ ذلك أنّ الملك العزيز لمّا جلس بدار العدل دخل عليه رجلٌ له هيئةٌ حسنة، فما شكّ العزيز أنه من الأشراف، فلمّا علم أنّه ذمّيٌّ أمر بذلك.

قال: ولاطَف الملكُ العزيز عمَّه الملك العادل إلى أن قام بدمشق في النّيابة، فأجاب بَعْد امتناع، وسلّم ديوان دمشق لصفيّ الدّين ابن شُكر كاتب العادل.

وفارق الملك العزيزُ دمشق في العشر الأوسط من شعبان، وعادَ إلى الدّيار المصريّة بعد أنْ استخْلَف الملك العادل وسلَّم إليه دمشق وماهو مضافٌ إليها من القلاع والحصُون والأعمال؛والخُطْبة والسّكّة باسم الملك العزيز.

ودخل العزيز إلى القاهرة جريدةً في رابع شهر رمضان؛ وفوّض شدّ الأمْوال والخطاب عليها للأمير فخر الدّين إياز جهاركس؛ وضمن الخُمور في كلّ سنة بسبعةعشر ألف دينار، فتجاهر النّاس بها وظهر الفَساد وفشا في النّاس؛ واجتمع الرّجال والنّساء في شهر رمضان من غَيْر اسْتِتَار، سيّما في الخليج وساحل مصر؛ ورتّب ضمان الخمر في النّفَقَة على طعام السّلطان؛ وهذه من البَلايا التي لم يُسْمع بمثلها، فإنّ عادَة الملوك والأكابر[أن] يجتهدوا أن يكون مأكُلُهم من أحلّ الجهات كالجوالي ومايُنَاسِبها، وبسبب إطلاق الخُمور كثر القتل بالقاهرة والجراحَات، وخَطْف العمائم والأمتعة والمآكل من الأسواق.

قال المؤرخ: وغَلَت الأسعار في هذه السّنة بالدّيار المصريّة، واشتَدَّ الأمرُ على النّاس، وكثُر الوباء، وبلغ القمح كلَّ أردبّ بدينارين، وأظُن الدّينار ثلاثة عشر درهما وثُلُث درهم، وهذا كان نهاية الغَلاء في ذلك العَصر.

ولقد وصف الفاضل عظم ماحلّ بالنّاس من غلوّ السّعر أمراً عظيماً، فكيف لو أدرك الفاضل الديار المصريَّة في سنة خمس وتسعين وستّمائة، وقد أبيع القَمح سعر الأردب ثلاثة عشر ديناراً ونصفَ دينار، وأبيع الفرُّوج بخمسين درهماً، ورطل البطّيخ الأخضر بأربعة دراهم، والسَّفَرْجلة بثلاثين درهما.

قال المؤرخ: وفي سنة اثنين وتسعين وخمسمائة كانت وفاة الشيخ السّيد الشريف عبد الرّحيم(٢٢)، قدّس الله روحه ونوَّر ضريحه، بقنا من أعمال قُوص ودُفن بجبّانتها، وضريحه معروفٌ هناك من أعظم مزارات أهل الصلاح بالدُّنيا.

وممَّا نُقِل من كلامه، قدّس الله روحه، وقَدْ سمع المؤذِّن يقول: أشهد أن لاإله إلا الله،فقال الشيخ: شهدنا بماشَاهَدْنا، ومن كلامه: لايستطيع العارفُ أن يوصِّل إلى منْ لايعرفُ حقيقة ماعَرف، كما لايستطيع البصيرُ أن يوصل إلى الأكْمَهِ حقيقة الألوان، وعُرض هذا الكلامُ على الشّيخ عزّ الدّين عَبْد العزيز بن عبد السّلام، رحمه الله ونفع به، فقال هَذا كلامُ مَنْ غرِق في الحقيقة.

ذكر استيلاء الفرنج على بيروت

وفي يوم الجمعة عاشر ذي الحجّة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة مَلَك الفرنج مدينة بيروت من المسلمين، وسببُ ذلك أنّ فرنج السّاحل راسَلُوا مَلِك الألمان في سنة اثنتين وتِسْعين وخمسمائة، وكان قد مَلَك

جزيـرة صقلية، وعـرَّفُوه أنّ المسلمين قد اشْتَغَلـوا بحرب بعضهـم بعضاً؛ فأقبـل في مراكبه إلى عكّـا. وصادَفَ ذلك سقُـوط الكُندهري ملـك عكا من شُبَّـاكٍ فهلك، فملَـك ملِكُ قبرص عكّـا، وخرج إلى بيرُوت فملكهـا من المسلمين، وكان بها عزّ الـدين سَامة، فعمرّها الفرنـج ولَمْ تزل بأيْديهم إلى أن فتحهـا الملـك الأشْرفُ في سنة تسعين وستمائة، على مـانـذكـرهُ إن شاء الله تعالى في أخبار دولة الترك.

وفيهـا خَرَجـت المراكبُ الحربيـة لقَصْد بـلاد الفـرنج، فـوجَدُوا بُطَسـاً للفرنج فملكوها، فوجد المسْلمون فيها أموالاً جليلة.

وفيهـا أنشأ الأمير فخـر ا لديـن إياز جهـارَكس النّـاصري القيْسَاريّـة المعروفة به بالقاهرة المحروسة، وجاءت من أحسن الأبنية.

ذكر وفاة سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن وملك ولده شمس الملوك

وفي يـوم الأربعـاء الثـالث مـن شـوّال سنـة ثـلاث وتسعين وخمسمائة تـوفي الملك العـزيز سيـف الإسـلام طُغْتكين بن أيّـوب، أخو السّلطـان الملك النّاصر بالمنصُورة التي أنشأها باليمن، وكان قد طرَدَ ولدَه شمس المُلُوك إلى الحجاز. فلمّا سمِع بوفاة والده سار إلى اليَمن وملَكَ بعْدَه.

وإلى سيْف الإسـلام هذا يُنْسَب البستـان الذي كـان بظَاهر القـاهِرة، وهو الآن عمائر تُعْرفُ بحِكر سَيْف الإسلام.

ذكر وفاة الملك العزيز وشيء من أخباره

كانـت وفاتُـه في ليلة الأحـد العشرينَ مـن المحرّم سنـة خمس وتسْعين وخَمسمائة بداره بالقاهرة.

وكانَ قد خرَج إلى الفيُّوم لقَصْد الصّيد إلى ذات الصّفا، فحُمَّ، فعاد إلى القاهرة واشْتدّ مرضُه، فمات، وقيل إنّه ساق خَلْفَ الصّيد فكَبا به فرسُه مرّةً بعد أخرى، فماتَ بعد ثلاثٍ. ودُفن بدارهِ بالقاهرة[وكان مولده بالقاهرة] في ثامن جُمادى الأولى سنةَ سبع وستّين، وقال الفَاضل في جُمادى الآخرة. فكانت مدّة عمره سبْعاً وعشرين سنةً وثمانية أشهر واثني عشر يوما؛ ومدة ملكه خمس سنين وعشرة أشهر وعشرين يَوماً.

وكان رحمهُ الله عادلاً كريماً بالمال، بخيلاً على طعامه، شجاعاً حسَن الأخلاق.

وخلف من الأولاد أحد عشر ولداً، وهم الملكُ المنصُور محمّد، والقائمُ بعْده؛ وعلي، وعمر، وإبراهيم؛ وعيسى؛ ومحمود؛ ورعاه؛ ويوسف؛ ويونس؛ وولدان صغيران، ولم يخلِّف في خزانته ذهباً ولادراهم إلاّ بعض قماش ليْسَ بالطّائل.

ذكر سلطنة الملك المنصُور محمد بن الملك العزيز ابن الملك الناصر وهو الثالث من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصريّة

ملَك الدّيار المصريّة بعدَ وفاة أبيه في يَوم الأحد العشرين من المحرّم سنَةَ خمس وتسعين وخمسمائة بوصية منه. ولمّا مَات الملكُ العزيز كان عَمّه الملك العادل يُحاصِر مَارِدِين فاجتمعت الأمراء الصَّلاحية وعَقَدُوا الأمر لِولده ولقَّبُوه بالملك المنصور، وكانَ قبل ذلك يُلَّقب بالنَّاصر، وإنما تركُوا النّاصر لموافَقَته لَقَب الخليفة، وركبَ في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من المحرّم، وشقَّ القاهرة من باب زَويلةٍ إلى باب النَّصر، والأمراء في خدمته، وكتب الأمراء إلى الملك العادل يعزُّونه في ابنْ أخيه

الملـك العزيـز ويذكُـرون اتفاقهـم على تنصيب ولَـده في السَّلطنة بعْـده، وأنهم على طَاعة الملك العادل.

ثم اجتمعـت الأُمراء الأسَـدية والصَّلاحيـة بظَاهرِ القَـاهرة وقـالوا: إن الذي فعلنَـاه من حِفظ الملـك العَزيز في وَلَـده هو نِعْم الـرأي، وإنما هُو صَغير السِّن لايفهم مايُقـال له، ولايقُوم بأعباء المُلك، ولابـد لنا من كبير منْ هَذا البيت يُـربِّيه ويكْفُلُه ويدبّر أحوال الدَّولـة، ولَيْس لها مثلُ الملك العـادل، وهـو الآن مشغـول ببـلاد الشّرق، وقصَـدُوا أن يكتُبـوا إليـه ويَستدعوه فكرةَ بعضُهم شِدةَ أخلاقه ومُمَـاقَتَتَهُ للجند، فعَدلوا عنه واتفقوا علَى استِدعاء الملكُ الأفضل من صَرْخَد.

وأن يتـولَّى أتابكيـة الملك المنصـور وأن ينـوب عن الأفضـل إلى حين وصولة، أخوه الملك الظافر خِضْر، فاستَقرَّ ذلك.

وكتبـوا إلى الأفضل وذَلـك في يـوم الخميـس سَادس عشَر صفَـر مـن السّنة، ونزل الملـك الظّافر بدَارِ السّلطنة في القـاعة العزيزيَّة، وقـام بنيابة السلطنة.

قال: ولمَّا وصـل كِتابُ الأمـراء إلى الأفضل، خـرج من صَرْخَـد في ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من صفر، وسلك البرِّيَّة إلى البيت المقدَّس.

ذكر وصول الملك الأفضل إلى القاهرة

واستقراره في تدبير دولة المنصور

كان وصولُـه إلى القاهرة في يوم الخميـس السّابع من شهـر ربيع الأول سنـةَ خمسٍ وتسعين وخمسمائة؛ فبرزَ النـاس لِلقـائه، وزُيِّنَـت المدينـةُ، لقُدومـه، ولمَّا دخل أقـرَّ الخُطبة بـاسم الملـك المنصور ابـن أخيه، ونَقَـش

السّكة باسمه، وكان الأفضل يُذكر بعده. وكَتَب إلى عمّه الملك العادِلِ يبذُل له الطّاعة والانْقِياد إلى أمره.

قال: ولمّا وصَل الملكُ الأفضل إلى بلبيس خرج فخر الدّين إياز جهارَكس، وزين الدين قراجا على أنهما يلتقيَانه، فتوجها إلى الملك العادل، ثم خرج في يَوْم وصُوله الأمير شمس الدّين سراسُنْقر بمماليكه، وجماعة من أصحابه والتحق بالملك العادل، وسَار إليه، إلى مَارِدِين.

ذكر مسير الملك الأفضل إلى الشام وحصَار دمشق وعوده عنها وخروجه عن الديار المصريّة

قال:ولما استَقَرَّ الأفضل في تدْبير الدّولة بالدِّيار المصريَّة، ولم يَبْقَ للملك المنصُور معه إلا الشّركة في الخُطْبة، حمَله أصحابُه على قَصْد دمشق وحَصْرها، وقالوا: هي لك بوصِيّة أبيك الملك النَّاصر، فعَزم على المسير إليها، وأمر العَسَاكر بالاسْتعداد لذلك. وبَرَز إلى المخيّم ببركة الجُبِّ، هو وابن أخيه الملك المنصُور، في يوم السّبت العشرين من جُمادى الأولى من السّنة واستَحثَّ العسكر على الخروج.

ووصل إليه في يوم الأربعاء، السّادس من جمادى الآخرة، رسولٌ من أخيه الملك الظّاهر صَاحبِ حَلب وهو يَلُومُه على إنْفَاذ الرُّسل بالطّاعة للعادل، ويقول: إن أكثر النّاس كانوا منْصَرفين عنه فانصَرفوا إليه، وحثّه على سُرعة قَصْد دِمشق؛ ويقول: اغْتَنم الفُرصة مادام العَادِلُ في حصَار مارِدِين؛ ووَعَده بالوصُول إليه، فأكَّدَ ذلك ماعنده، وأقام ببركة الجُبّ وهو يحثُّ العسكر على سُرعة الحركة، إلى ثاني شهر رجَب، فرحل عنها.

وفي مدّة مقامه ببركة الجُبّ أحضر قاضي القضاة والشُّهود، وأشهدهم على نفسه أنه وقف المطريَّة (٢٣) ومُنْية الباسل (٢٤) ، والرّباع المسوّغة

والمستمرّة بيد الدّيوان على عِمارة سُور القاهرة ومِصْر والبيمارِستان بالقاهرة.

قال: ولمَّا وصل الأفضل إلى بلبيس احْتاطَ على ماكان بِاسْم العَادل وألْزَامه بالدّيار المصريّة؛ وأقْطَعه، ثم قَبَض على أخيه الملك المؤيّد وقَيّده وأعاده إلى القاهرة، فاعتُقل بالقَلْعة، وتمَادى الملك الأفضل في سَيْره إلى دمشق. هذا ماكان منه.

وأما الملك العادل فإنَ سَراسُنقر النَّاصري وصَل إليه بمارِدِين واستحثَّه على العَوْد إلى دمشق، فأوصى ولدَه الملك الكامل بمُحاصَرتها. وفارقَها العادلُ لخمْسٍ بقين من شهر رجب، ووصل إلى دمَشْق في يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحْصين البلد. ووصلت العساكرُ المصرية في يوم الخميس، ورتَّب الأطْلاَب وسارَ الملكُ المنصورُ بنُ الملك العزيز في القَلْب وزحَفَ على الْبلَد فأخذ قصْر حَجاج والشَّاغور، وكان العادلُ لما شاهدَ إقبال العَساكر أمر بإحْراق قصْر حجّاج فأُحرق، واحترق فيه عدَّة مساجد وأطفال. وأحاطت العَساكر المصريَّة بدمشق، ودَخَلها جماعة منهم من باب السَّلامة، وانتهَوْا إلى السُّوق الكبير، وخرجُوا من باب الفرَاديس. وقدم الأفضل الميدان الأخضر، ثم تأخّر إلى مَيدان الحصى؛ واستقر بهذه المنْزِلة أكثر من ستَّة أشْهُر.

وكاتب الملكُ العادل جماعةً من الأمراء المصريّين، ففارَقُوه ودَخَلُوا إلى دمشق فأكرمهم.

ثم وصل الملكُ الظّاهر صاحبُ حلب ومعه أخواه الظّافر والمعزّ وجاءهُم الملكُ المجاهدُ صاحب حمص، وعسكر حماة دُون سُلطانها، وحسام الدّين بشارة صاحب حصن بانياس، وكان من أكابر الدّولة، فأشار بالصلح.

قال: ولمّا حاصَر الملكُ الأفضل دمشق، مَنَع مَنْ يدخُل إليها بشيء من الميرة، وقطع عنها الأنهار؛ فاشتدَّ الأمر على أهل دمشق، واستغاثت الرَّعايا على العادل، وتسلَّطوا عليه، وحملوه على تَسْليم البلَد. وانْتَقَل أكثر مَنْ في البلد إلى العَسْكر، ونصبوا به أخْصَاصاً ومساكن؛ وأُقيمت الأسواق به.

فلما اشتدَّ الأمر على العَادل كتب إلى الظّاهر يَستميلهُ وقال: أنا أسلّم البلَد إليك دونَ غيرك، فنُمِي الخبرُ إلى الأفضل، فاضطَرب رأيُهما، وقيل بل كتب إليهما يقول: أنا أسلم البلَد إليكُما بعد سَبْعَة أشهر، فأجَابَاهُ إلى ذلك، وقيل إنه كان يكتب إلى الأفضل يقولُ:الظّاهر قد صَالَحني، وإلى الظّاهر بمثل ذلك.

واتّفقَ في فَسَاد حال الأفضل أن جماعة الأمراء كان بأيديهم إقطاعات بالدّيار المصريَّة جليلَةُ المقدار، فحسَدَهم آخرون عليها، فكانوا يأتُون إلى الملك الأفْضل ويقولُون: إنَّ فلاناً قد عزَم على قَصْد عَمّكَ العَادل والانضمام إليه، ويأتون لذلك الأمير فيقولون: إنّ الأفضل قَدْ عَزم القَبضَ عليك، ويأتي ذلك الأمير إلى الأفضل فَيَرى في وجْهه أثر التغيُّر لِمَا نُقل عنه، فلايشكّ ذلك الأميرُ في صِدْق النَّاقل فالْتَحق به جماعةٌ من الأمراء.

فبينما الأفضل كذلك إذ قَدِم الملكُ الكامل بن الملك العَادل من الشَّرق، في تاسع عشر صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، بالعساكر والتُّركمان فاشْتدّ به عضد أبيه، وتأخر الأفضل بمن معه إلى سَفح جَبل العقَبة، ثم انتقل إلى مَرْج الصُّفَّر في يوم الاثنين ثاني عشر صفر؛ وعَادَ الظّاهر والمجاهد.

واشتد البرْد على العَسْكر المِصري، فعاد الأفضلُ إلى الدّيار المصريّة،

وسَـاقَ العَـادل بعسَاكـره في إثـره، فكـان وُصُول الأفضـل إلى بلبيـس في حَادي عشري شهر ربيع الأول، فأشارعليـه أصحابه بالإقامة بها.

قال: ولَمَّا وصَـلَ الملكُ العـادِل إلى تلّ العجُول، أقـام به حتـى اجتمع إليه أصحـابه، ورَاسَـل الأفضل، فعاد جـوابه أنـه لايصالحُه حتـىّ يفارق الأمراء الصلاحية.

فلما اتصل ذلك بالصلاحية غضبوا على المسير إليه.

هذا والأفضـل على بلبيس، وقـد تفرق معظم أصحـابه إلى إقطـاعاتهم وجماعة منهم باطنوا الملك[العادل].

حواشي نهاية الأرب

١ـ أتسز بن أوق، تقدم ذكره في الجزء الأول من موسوعتنا.
٢ـ أي فرقة يبلغ تعدادها عشرة آلاف:
٣ـ أي السلطة المملوكية أيام الناصر محمد بن قلاوون
٤ـ القبق بالتركية قرعة عسلية، وقد أطلقت على لعبة رياضية ، حيث كانت القرعة تنصب هدفا لرمايات الفرسان ، أو يتخذ بدلا عنها دريئة خشبية بأعلاها دائرة تسدد نحوها الرمايات .
٥ـ أي جعبتين أو كنانتين.

٦ـ زيد ما بين الحاصرتين من الكامل لابن الأثير، فهو مصدر النويري الاساسي، والاشارة اليه دوما عند ما يقول: قال المؤرخ.
٧ـ حصن من أعمال أحمص أو حماه كان على مقربة من حصن الأكراد . معجم البلدان.
٨ـ كذا بالاصل وفي تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٢٦١ ، والمعني بهذا برتراند الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، وعند ابن القلانسي كان هذا سنة اثنتين وخمسمائة.
٩ـ أي الخراج المقرر على كل اقطاع.
١٠ ـ كان على مقربة من قلعة القاهرة ـ طبعا ـ قبل تأسيسها
١١ـ أواني من الخزف.
١٢ـ هو سلطان بن ابراهيم بن مسلم المقدسي ، المعروف بابن رشا. توفي سنة ٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا للمقريزي
١٣ـ هو محمد بن عبد المولى بن محمد بن عبد الله اللبني المغربي ـ سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا
١٤ـ هو هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد ، أبو الفضائل، المعروف بابن الأزرق سيأتي ذكره في اتعاظ الحنفا

١٥ـ هو المفضل بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن ابي كامل ـ سيرد ذكره في اتعاظ الحنفا
١٦ـ تعرف منية الباساك حاليا باسم المنيا في محافظة الجيزة ـــ مركز الصف. القاموس الجغرافي لرمزي ق ٢ ج٣ ص ٣١.
١٧ـ أطفيح حاليا بلدة تابعة لمركز الصف ـ محافظة الجيزة ـ القاموس الجغرافي ق ٢ ص ٣ ص ٢٦
١٨ـ تتبع دلاص حاليا مركز بني سويف بمحافظة بني سويف ، القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص ١٥٩ ـ ١٦٠
١٩ـ هي مدينة المنية الحالية في مصر حاضرة محافظة المنيا فيها.
٢٠ـ من قرى مركز الجيزة ـ محافظة الجيزة . القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص ٣
٢١ـ الجبال المشرفة على مدينة طرابلس في ليبيا.
٢٢ـ عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائي
٢٣ـ من ضواحي القاهرة، القاموس الجغرافي ق ٢ ج١ ص ١١
٢٤ـ من اقليم الأطفيحية ، تابعة حاليا المركز الصف بمحافظة الجيزة . القاموس الجغرافي ق ٢ ج٣ ص٣١